20051209.0002a-ar

النهار

حول العلم و العالم

"النهار"
الجمعة 9 كانون الاول 2005

مقبرة خرافية من طبقتين!

إنه العار.

لكن وحول العار تتجاوز الآن اولئك الذين تعلق في ايديهم ورقابهم دماء الضحايا البريئة لتصل الى اولئك الذين تتلوث اخلاقهم بدم الصمت وتغرق نفوسهم السوداء في بؤس السكوت والتعامي.

لم نكن نظن اننا في لبنان سنحتل مكاناً مرموقاً في لائحة العار، تماماً الى جانب رواندا وكوسوفو والدخيل وحلبجة. لكننا من اليرزة الى عنجر انطلقنا بسرعة مذهلة في هذا الطريق، الذي يفترض ان نسير عليه الى آخر سنتيمتر منه، كي لا نقول الى آخر عظمة في آخر مقبرة مجهولة، لكي نكتشف الحقيقة كاملة.

لكنه العار المضاعف، وخصوصاً عندما نقرأ وراء بعض التصريحات وفي البيانات او الردود الرسمية ما قد يوحي بأنْ:

أقفلوا الملفات، أقفلوا الأفواه، أقفلوا المقابر الجماعية، ودعوا الموتى يرتاحون. او بالاحرى: دعوا الاحياء الموتى في هناءتهم والحبور.

اربعة اسابيع ونيّف على بدء تدفق العار ووحول العار، منذ بدأت قصة المقابر الجماعية بعد نبش تلك الحفرة في وزارة الدفاع قرب نصب الجندي المجهول. وهي الحفرة التي ستصير بركاناً من الاحاسيس التي تغلي، حيث يختلط رفات العسكريين الشهداء برفات الحس والمسؤولية على امتداد الاعوام المنقضية منذ 13 تشرين الاول 1990، فاذا اضفنا 15 عاماً من صراخ الامهات وعويل الابناء والاخوان والارامل: "أين ابناؤنا العسكريين؟" يمكن عندها للبعض ان يتذوق فعلاً طعم العار.

لقد ذهب الابناء يا سيدتي. ذهب الابطال يا شقيقتي، ذهب الآباء أيتها اليتيمة الصغيرة المنتحبة. ولكن هناك من قيدهم على خانة الجندي المجهول.

الا يكفي ان يقوم الساهرون على الوطن بتقييد احبائكم الذين سقطوا دفاعاً عن وزارة الدفاع والقصر الجمهوري على خانة الجندي المجهول؟

الا يكفي ان الذين "قادوا" الهجوم على القصر والوزارة في ذلك اليوم الاسود، تذكروا ان يخصّوا ابناءكم بـ"مقبرة جماعية"، حيث تعذّر منذ ذلك التاريخ حتى الآن معرفة هوياتهم، ربما لأننا منشغلون فلم نسمع بشيء اسمه D.N.A؟

الا يكفي ان احباءكم حظوا بمراسم دينية قبل إلقائهم في الحفرة المريعة، وكان يمكن ان يتحللوا في العراء والتيه وحتى من دون صلاة، كما كان يمكن ان يلقوا مصيرا مشابها لمصير اولئك البؤساء الذين رقدوا في العدم او في المجهول عند تلك التلة في عنجر؟

الا يكفي انهم وضعوا في حفرة واحدة، فلا تصيبهم الوحشة والوحدة والكآبة، وخصوصاً انه كان في وسعهم على امتداد كل هذه الاعوام ان يستمعوا الى النفير، وان يؤدوا التحية للنشيد الوطني، وان يقدّموا سلاحهم في كل مناسبة، وانه كان في امكانهم ان يستَرِقوا الاسماع الى وقع أقدام رفاقهم في مَلعب كرة القدم، وان يشاركوهم الحماسة والتصفيق ايضا؟

الا يكفي انهم قبعوا تحت أرض اليرزة عند تخوم القصر الجمهوري ولم يكونوا عيناً ترى واذناً تسمع في اليرزة وعند تخوم القصر الجمهوري، على امتداد كل هذا الاعوام الفاجعة والثقيلة.

الا يكفي انهم حظوا بالتكريم دائماً وفي كل المناسبات التي يتذكر فيها الساهرون على سؤدد هذا الوطن المتعوس الجندي المجهول؟

والا يكفي اذا لاحظتي ايتها الأم الحزينة، ان ولدك الذي ذهب ولم يعد في ذلك اليوم الحالك السواد، حظي بـ"مجد التجهيل" فصار على خانة الجندي المجهول، وصرتِ انت معه ايضاً مدفونة في حفرة اليرزة وتملكين ممراً سرياً الى جاه الجندي المجهول؟!

ويا سيدتي الحزينة، زوجك انتقل الى المجهول ونحن وأنتِ ننتقل الى الآخرة، وآه الف آه أيها الجندي الشهيد، أياً تكن وأين تكون، في حفرة المجهول او في نفق المعلوم، آه والدمع يفيض منا حتى الصميم.

ويا سيدتي،
لو كان في وجوه البعض بقية من الحس والحياء، لكان تعرّق الحياء والخجل يعوضنا الآن عن جفاف كانون. ولكن ما نفع الحكي والبعض يكاد يصيح: أقفلوا المقابر أقفلوا الأفواه ودعوا المجهولين يشبعون موتاً؟ وما نفع الحكي ولم تخرج بعد تظاهرة احتجاج ولم يذهب مسؤول الى صيام، ولم تتوقف كل النخاسة السياسية المزدهرة في لبنان، والوطن يدخل بجدارة لائحة الوحل ليحتل مكاناً متقدماً في دول المقابر الجماعية؟
والمقابر الجماعية في لبنان مجرد فاصلة في الابجدية الوحشية الزاهرة في هذه المنطقة، أو مجرد حبة رمل في صحراء. فالمنطقة من المحيط الى الخليج هي مقبرة خرافية كبرى وهي مقبرة جماعية من طبقتين: مقبرة تحت الارض للضحايا والشهداء، الذين صفتهم أنظمة الاستبداد، ومقبرة فوق الارض للذين يقيمون في حفر الصمت والسكوت والخنوع والمراوغة.
يا ام العسكري الشهيد،
المجد مثل الالماس، يطل من قعر الحفر، والعار مثل الأسن، ينز من صمت الرجال والعمى الضارب في قلوبهم والعقول.

راجح الخوري

Copyright © 2005 An-Nahar Newspaper s.a.l. All rights reserved.